التطور الدلالي في كلمة حية

د. نجاة سعد محمد البكوش
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب _ جامعة بنغازي

الملخـــص

في تطور الدلالة قد يتعمَّد الناطقون إحداث تطوّر دلاليّ في اللفظ، وقد يطرأ هذا التطوّر دون تعمُّد، وله أسباب متعددة، وكلمة حيّة من الكلمات العربية التي اختلفت دلالتها في الاستعمال؛ وارتبطت بكلمة العصا في القرآن الكريم، وهي عصا سيّدنا موسى، عليه السلام، ويُسْتأْنسُ في بيان دلالتها بالتأمّل في تفسير الآيات التي وردت فيها هذه المعجزة ؛ لأن المفردات في العربية مرّت عبر تاريخها بأحداث وظواهر أكسبتها دلالات مختلفة، فجاءت في القرآن الكريم بدلالات تفهم من السياق الواردة فيه.

وكلمة حيّة صفة مشبهة، أطلقت على جنس من الحيوان، واستعملت في كلام العرب استعمالا مجازيا؛ فعبرت عن القوة والشجاعة والظلم والذكاء.

المـقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد؛ فإنَّ قارئ القرآن الكريم يدرك وجود تعدد ألفاظ دالة على مدلول واحد، لا سيما إذا تكرر ذكر المدلول في أكثر من موضع من السور القرآنية، من ذلك يوم القيامة، فهو الآزفة، والحاقة، والساعة، والصاخة، والطامة الكبرى، والغاشية، والقارعة، والواقعة، واليوم الآخر، ويوم البعث، ويوم التغابن، ويوم التلاقي، ويوم التنادي، ويوم الجمع، ويوم الحساب، ويوم الحسرة، ويوم الخروج، يوم الخلود، ويوم الدين، ويوم الفتح، ويوم الفصل، واليوم الموعود، ويوم الوعيد، وكل لفظ من هذه الألفاظ ـ مع دلالته على يوم القيامة ـ يتناسب مع السياق العام الذي ورد فيه. ولعل هذا من باب الترادف؛ ولكن قد تأتي اللفظة دالة على مدلول، ثم يتغير مدلولها، وتصير دالة على مدلول آخر مغاير للمدلول الأول، وهذا التغير الذي يطرأ على مدلول اللفظة يُسمّى التطور الدلالي، وهو تغيّر في معنى اللفظة؛ من ذلك على سبيل المثال العَتَبُ دالٌّ على "كلّ مكان نابٍ بنازله ومنه قيل للمِرْقَاةِ ولأُسْكُفَّةِ الباب عَتَبَة، وكُنِّيَ بها عن المرأة [الزوجة] فيما رُويَ أنَّ إبراهيم ــ عليه السلام ــ قال لامرأة إسماعيل: قولي لزوجك غيِّرْ عَتَبَة بابك. واسْتُعير العَتَبُ والمَعْتَبة لِغِلْظَةٍ يجدها الإنسانُ في نفسه على غيره.... وقولهم: أعْتَبْتُ فلانا أي أبْرَزْتُ له الْغِلْظةَ التي وُجِدتْ له في الصدر...."[1]وهنا يلاحظ التطور في دلالة مادة ع ت ب، من دالة على مدلول محسوس، وهو عتبة الباب، إلى دالة على حقيقة ذهنية لا تدرك بالحواس، وهي الغلظة في الصدر.

وكذلك الحَبُّ والحَبّة، يقال: في الحنطة والشعير وما يجري مَجراهما ممَّا يُحصد، والْحِبُّ مَنْ فَرَطَ حُبُّهُ، وحَبَّةُ القلب: تشبيها بالحَبَّة في الهيأة، وحَبَبْتُ فلانا، معناه أصبتُ حَبَّةَ قلبه، وأحببتُه: جعلتُ قلبي معرّضا لِحُبِّهِ، ووضِعَ محبوب موضع مُحِبّ، واستُعمِل حَبَبْتُ في موضع أحْبَبْتُ، والمَحَبَّة: إرادة ما تراه خيرا.[2] فالتطور الدلالي لمادة ح ب ب واضح، وأصل الاستعمال فيه دالٌّ على حَبَّةِ الحنطة والشعير، وللشبه بين شكل حَبّة الحِنطة وحَبَّة القلب تطورت دلالة هذه المادة وصارت دالّةً على إرادة الخير، والنفع، والإيثار، والتقرب من المحبوب.

وكلمة حيَّة وردت مرة واحدة في القرآن الكريم، وهي دالة في سياقها على ما تحولت إليه عصا سيّدنا موسى، عليه السلام. ويقال: هذه لغة حيَّة، والمعنى أنها ليست ميّتة، فهنا كلمة حيَّة وصف مشتق من ح ي ي، ويقال في وصف امرأة بالسوء: هذه حيَّة؛ أي تشبه الحيَّة (الثعبان) في الشر والخديعة. وتعددت دلالة كلمة حيَّة، فهل حدث للكلمة تطور دلالي؟

يمكن القول :إنّ التطور الدلالي ظاهرة شائعة في كل اللغات، ومرتبطة بسنن التغير العام في حياة الإنسان؛ وتتعدد الأسباب لتغير معنى اللفظ في كل لغة، والنص القرآني الكريم صورة للغة العربية في ذروة فصاحتها، وجاءت فيه ظواهر دلالية معجزة، أعجزت فصحاء البيان أن يأتوا بمثلها، والدلالات التي حملتها المفردة في القرآن الكريم مقصودٌ بها دلالات صالحة في كل زمن؛ من ذلك دلالة ما آلت إليه عصا سيّدنا موسى في القرآن الكريم؛ إذ تكرر ذكرها في أكثر من موضع، وهو دال على معجزة سيدنا موسى، عليه السلام، فلما ألقاها تحولت إلى كائن آخر، عبر عنه السياق القرآني بثلاثة ألفاظ: ثعبان، حيّة، جانّ. والسؤال هنا؛ هل هذه الألفاظ مترادفة؟

لا شك في أنّ كل كلمة في القرآن الكريم لها دلالتها التي تناسب السياق الذي قيلت فيه، ولا يمكن إبدال كلمة بأخرى، وهذا من الإعجاز البياني في القرآن الكريم.

ولكي يتضح الفرق الدلالي بين الكلمات الدالة على إعجاز العصا بعد إلقائها، وتناسب كل لفظة مع السياق الذي جاءت فيه، والوقوف على الدلالات التي تحملها لفظة حيَّة، وهل حدث في الكلمة تطور دلالي؟ سينقسم هذا البحث على ثلاثة مباحث:

البحث الأول: التطور الدلالي

المبحث الثاني: دلالة العصا وما آلت إليه

ثم تأتي الخاتمة، وستتضمن أهم نتائج البحث. ((وما توفيقي إلا بالله))

البحث الأول: التطور الدلالي

يُعدّ موضوع التطور الدلالي من الموضوعات المهمة في علم الدلالة؛ واللسانيات الحديثة؛ إذ يكشف لنا جانبا مهما من حياة اللغة؛ فاللغة كائن حيّ، تتغير بمرور الزمن، حيث تفتقد في كل يوم ألفاظا، وتكتسب أخرى، وتترك استعمال أساليب، وتنشأ مكانها أخرى؛ فهي "مادة حيّة وظاهرة اجتماعية تخضع كما يخضع غيرها من ألوان النشاط الإنساني إلى عوامل الزمان فتتأثر سلبًا وإيجابًا،"[3] ولن تعيش اللغة مهما بلغت من الغنى، إلا باستعمالها، وتداولها على ألسنة الناطقين بها، ووصل حاضرها بماضيها.

ويرتبط التطور الدلالي بالمعاجم، والاشتقاق، والبيئة، والتاريخ، والسياسة، والدين، والفلسفة، وعلم النفس، والبلاغة، ويمكن إجمال القول بأن التطور الدلالي يرتبط بثقافة العصر وعلومه، وجدير بالذكر أنّ الكلمة الواحدة في اللغة يُعبَّر بها عن مدلولات متعددة، وهذا من خواص الكلام الإنساني؛ يقول ستيفن أولمان : "إن وجود كلمة مستقلة لكل شيء من الأشياء التي قد نتناولها بالحديث من شأنه أن يفرض حملا ثقيلا على الذاكرة الإنسانية،"[4] لذلك نجد أن الكلمة قد تتغير دلالتها بتغير السياق الذي وردت فيه، ويمكن أن تعبر الكلمة عن مدلولات متغايرة، كإلحاق مدلول جديد بمدلول قديم، مع احتفاظ الكلمة بقدرتها على التعبير عن المدلولين.

وهذا يعني أنَّ التطور الدلالي تغيّر في معنى اللفظ؛ ويظهر التغير في "صورتين اثنتين؛ فقد يضاف مدلول جديد إلى كلمة قديمة، أو كلمة جديدة إلى مدلول قديم"[5] فالكلمة القديمة مثلا جرثومة تعني الأصل، تقول جرثومة العرب؛ أي أصل العرب، والآن جرثومة تعني مكروبات.[6]

وكذلك الحرامي؛ اسم منسوب إلى الحرام، تطورت دلالة هذه الكلمة وتخصصت بمعنى اللص السارق في القرن السابع الهجري في بعض النصوص المروية.[7]

وقد ظهرت نظريات متعددة توضح أسباب تغيّر المعنى، وهي أسباب لغوية وتاريخية واجتماعية.[8]

أولا: الأسباب اللغوية:

قد يتغير المدلول بسبب قواعد اللغة، من ذلك كلمة وَلَد في العربية تُطلق على الذكر والأنثى والمثنى والجمع،[9] ولكن تذكيرها في قولنا: ولد صغير، جعل معناها يرتبط في الذهن بالمذكر.[10] وهنا حدث تطور دلالي في كلمة ولد، وصارت تدل على المذكر فقط.

ثانيا: الأسباب التاريخية:

قد يتغير المدلول، واللفظ الدال عليه يبقى على حاله، من ذلك تغير شكل المدلول، في "كلمة سفينة مثلا، قد تغيرت صيغتها تغيرا لا يكاد يذكر منذ العهد الأنجلو سكسوني ، ومع ذلك فإن السفن الحالية تختلف عن السفينة التي كان يبحر عليها قراصنة الشمال من عدة أوجه، أي من حيث الحجم والتركيب والشكل والخواص الفنية."[11]

وكذلك الخاتَم، فهو لفظ مأخوذ من الجذر (ختم) الذي يعنى "طبع" ومنه الخِتام وهو الطِّينُ الذي يُخْتَم به على الكتاب، وسميت الحلقة التي تُلبس في الإصبع خاتما لأنه يطبع بها على الكتاب، ثم اتخذت حلية وزينة ولم يعد لها علاقة بالختم.[12]

ثالثا: الأسباب الاجتماعية:

في المجتمعات الإنسانية يحدث التطور الدلالي باستمرار؛ فتنتقل كثير من المعاني من مجموعة لغوية إلى أخرى، عن طريق الاحتكاك بشعوب أخرى، وما يجد من ثقافات وأفكار وما ينتشر من أديان ومذاهب وفلسفات، وقد تعرضت مفردات العربية إلى تغييرات كثيرة وواسعة بسبب مجيء الإسلام بدين جديد، وحدث التطور الدلالي في كلمات مثل الصلاة [13] فهي ــ كما قال كثير من أهل اللغة ــ الدّعاء والتبريك والتمجيد، يقال صلّيتُ عليه؛ أي دعوتُ له[14] وحدث تطور دلالي في كلمة الصلاة، ودلت على "العبادة المخصوصة، أصلها الدعاء، وسميت هذه العبادة بها كتسمية الشيء باسم بعض ما يتضمنه، والصلاة من العبادات التي لم تنفك شريعة منها، وإن اختلفت صورها بحسب شرع فشرع." [15]

وذكر بعض الباحثين أن هذه الأسباب ليست جامعة لكل التغيرات التي تحدث في المعنى، فهناك أسباب أخرى تتمثل في:

1ــ ظهور الحاجة؛ عندما يريد المجتمع اللغوي أن يعبر عن فكرة فإنه يتحدث عنها بمجموعة من الأصوات في مفردات المعجم، فقد يقترض كلمة للتعبير، دون النظر إلى أصلها أو اشتقاقها، وقد يلجأ أبناء اللغة إلى الألفاظ القديمة ذات الدلالات المندثرة فيحيون بعضها ويطلقونه على مستحدثاتهم،[16] فتنتقل اللغة من السلف إلى الخلف؛ و"إذا عدنا بالذاكرة إلى

كلمات مثل القطار أو البريد أو السيارة؛ فهل يخطر بأذهاننا أنّ القطار كان يطلق على مجموعة الإبل، والبريد على الدابة التي تحمل الأخبار، والسيارة على المجموعة السائرة."[17] وصار القطار دالًّا على "مجموعة مَرْكبات السكّة الحديدية تجرها قاطرة،[18] والبريد دالًّا على الرسائل،[19] والسيارة دالّةً على "عربة آليَّة سريعة السير، تسير بالبنزين، ونحوه [بالوقود السائل] وتستخدم في الركوب أو النقل."[20]

2ـ التطور الاجتماعي والثقافي؛ ويتمثل في الانتقال من الدلالات الحسية إلى الدلالات التجريدية.

وقد يتمثل في شكل اتفاق مجموعة فرعية ذات ثقافة مختلفة على استخدام ألفاظ معينة في دلالات تتناسب مع مهنتها وثقافتها،[21] فتجد ـ مثلا ـ لغة النجارين تختلف عن لغة المعلمين.

3ـ المشاعر العاطفية؛ "وهو في حقيقته إبدال الكلمة الحادة بكلمة أقل حدة وأكثر قبولا."[22]

4ـ الانحراف اللغوي، فتستعمل كلمة للدلالة على معنى قريب منها أو مشابه لها، ويعد من باب المجاز.[23]

5ـ الانتقال المجازي، "وقد يحدث بمرور الوقت أن يشيع الاستعمال المجازي؛ فيصبح للفظ معنيان، وقد يشيع المعنى المجازي على حساب المعنى الحقيقي، ويقضي عليه." [24]

6ـ الابتداع، ويقوم به صنفان من الناس: الأول: الموهوبون، والآخر: المجامع اللغوية، والهيآت العلمية.[25]

وفي كتب التراث العربي تظهر بعض أسباب التطور الدلالي، حيث ذكر ابن فارس في القرن الرابع الهجري الأسباب الإسلامية التي كانت وراء تغير دلالات الألفاظ، وجاء بأمثلة واضحة يمكن عرضها على النحو الآتي:

الأسباب الإسلامية:

بالرجوع إلى كتب التراث العربي يلاحظ أنَّ ألفاظا كثيرة تغيرت دلالاتها بعد مجيء الإسلام، قال ابن فارس: "كانت العرب في جاهليتها على إرثٍ من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونَسَائكهم وقرابينهم، فلما جاء الله، جل ثناؤه، بالإسلام حالت أحوالٌ، ونُسِخَت ديانات، وأُبطلت أمورٌ، ونُقِلت من اللغة ألفاظ من مواضعَ إلى مواضعَ أخَر بزيادات زيدت، وشرائع شُرعت، وشرائط شُرطت، فَعفّى الآخر الأول."[26]

والمعنى أنّ الإسلام أثّر في اللغة؛ فاستعملت ألفاظ قديمة لتعبّر عن معانٍ جديدة لم تكن معروفة من قبل، كما تغيرت الحياة الاجتماعية في المجتمع، وتغيَّرت اهتماماته، و"شُغِلَ القوم

ـ بعد المُغاوَرات والتّجارات، وتطلُّب الأرباح والكدْح للمعاش في رحلة الشتاء والصيف، وبعد الإغرام بالصيد والمُعاقرة والمياسرة ـ بتلاوة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد، وبالتفقُّه في دين الله، عزّ وجلّ، وحفظ سنن رسول الله، ﷺ، مع اجتهادهم في مجاهدة أعداء الإسلام. فصار الذي نشأ عليه كأن لم يكن، وحتى تكلموا في دقائق الفقه، وغوامض أبوب المواريث وغيرها من علم الشريعة وتأويل الوحي بما دُوِّن وحُفِظَ حتى الآن."[27]

وهذا يمكن إضافته للأسباب الاجتماعية؛ فتغيّر حياة المجتمع انعكس على التغير في دلالات ألفاظ لغته؛ "فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن، والمسلم والكافر والمنافق، وأنَّ العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان وهو التصديق. ثم زادت الشريعة شرائط و أوصافا بها سُمِّي المؤمن بالإطلاق مؤمنا. وكذلك الإسلام والمسلم، إنما عرفت منه إسلامَ الشيء ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء. وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلا الغِطاء والسَّتْر. فأما المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه، وكان الأصل من نافقاء اليربوع." [28] و"المنافق اسمٌ إسلامي لم يُعرف في الجاهلية، وهو مَنْ دخل في الإسلام بلسانه دون قلبه؛ سُمِّي منافقا مأخوذ من نافقاء اليربوع،"[29] النافقاء: إحدى حجر اليربوع يكتمها ويظهر غيرها.[30] ويذكر ابن فارس أن في الصلاة اسمين؛ لغويّا وشرعيّا، وكذلك سائر العلوم كالنحو والعروض والشعر، فكل علم له اسمان؛ لغويّ وصناعيّ.[31] وقد يكون للكلمة معنيان، حقيقي ومجازي، والمعنى الحقيقي هو الأصل.

وينظر الدكتور إبراهيم أنيس إلى "ما يُسمَّى بالحقيقة والمجاز على أنه مظهر للتطور الدلالي في كل اللغات."[32] ويأخذ على القدماء في معالجتهم للحقيقة والمجاز أنهم "وجَّهوا كل عنايتهم إلى نقطة البدء في الدلالة، وركزوا نظرتهم على نشأتها، فتصورا ما سمَّوه بالوضع الأول، وتحدثوا عن الوضع الأصلي كأنما قد تم هذا الوضع في زمن متعين، وفي عصر خاص من عصور التاريخ، ولم يدركوا أن حديثهم عن نشأة الدلالات ليس في الحقيقة إلا خوضا في النشأة اللغوية للإنسان، تلك التي أصبحت من مباحث ما وراء الطبيعة، والتي هجرها اللغويون المحدثون بعد أن يئسوا من إمكان الوصول في شأنها إلى رأي علمي مرجّح."[33] وهذا يعني أنّ المعنى الأصلي للفظ قد يرجع للغات قديمة اندثرت، وصار المعنى المجازي أصلا؛ وبهذا يصعب الحكم على بعض الكلمات بأنه حدث فيها تطور دلالي.

"فاللفظ قد يشيع استعماله في جيل من الأجيال للدلالة على أمر معين، وكلما ذكر اللفظ خطرت في النفس الدلالة في الأذهان دون غرابة أو دهشة، وهو من أجل هذا مما يسمى بالحقيقة، فإذا انحرف به الاستعمال في مجال آخر، فأثار في الذهن غرابة أو طرافة قيل حينئذ إنه من المجاز، وتلزمه تلك الغرابة أو الطرافة في الاستعمال زمنا ما بعده قد يفقدها، ويصبح من الألفة والذيوع بحيث تنسى مجازيته ويصير من الحقيقة."[34]والأمر كذلك في المفردات الإسلامية؛ "فقد تجرد كثير من الألفاظ العربية من معانيها العامة القديمة، وأصبحت تدل على معان خاصة تتصل بالعبادات والشعائر أو شؤون السياسة والإدارة والحرب، أو مصطلحات العلوم والفنون؛"[35] ولكن لا يوجد ما يدل على أنّ المعنى الجديد للكلمة غير موجود في اللغات السامية؛ فكلمة منافق اكتسبت معنى جديدا بعد الإسلام، وهذا المعنى جديد بالنسبة للجيل الذي شاع فيه؛ فقد يكون هذا المدلول موجودا في اللغات القديمة؛ ولاسبيل للوصول إليه.

وعلى سبيل المثال كلمة شيخ، استعملت في العربية، ويجوز أن يكون لها أصل في لغات قديمة، ولكن يصعب الوصول إلى أصل دلالتها، وفي المعجم الشيخ: الذي استبانت فيه السِّنُّ، وظهر عليه الشيب، وقيل: هو شيخ من خمسين إلى آخر عمره،... وشَيَّخْته: دعوتُه شيخا للتبجيل."[36]

وفي القرآن وردت كلمة شيخ تحمل دلالة من طعن في السّنِّ؛ قال تعالى: ((قالتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وأَنَا عَجُوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخًا))[37] ((إنّ له أبًا شيخا كَبِيرا))[38] ((وأبونا شيخٌ كَبِيرٌ))[39] ((ثم لتبلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا))[40]

والملاحظ أنّ السياق أكد دلالة كلمة شيخ على المسنّ، في قوله((أنا عجوز وهذا بعلي شيخا)) وفي ((لتكونوا شيوخا)) أي بعد الشباب والقوة والشدة تأتي الشيخوخة، كما تأكدت الدلالة بالوصف بكلمة كبير.

وجاء في مفردات الراغب: "يقال: لمن طَعَنَ في السّنِّ الشيخ، وقد يعبَّر به فيما بيننا عمَّن يكثُر علمُهُ لما كان من شأن الشيخ أن يَكْثُرَ تجاربُه ومعارفُهُ."[41]

ويفهم أنّ كلمة شيخ تطورت دلالاتها وصارت تُطلق على العَالِم، ويمكن أنْ يفهم من قول الراغب: "وقد يُعبَّر فيما بيننا" أنّ كلمة الشيخ الدالة على العَالِم غير معروفة إلا في الجيل الذي عاش فيه الراغب، أما قبل ذلك فلم تكن هذه الدلالة شائعة.

وفي القرن الحادي والعشرين من التقويم الميلادي تطلق كلمة شيوخ ويراد بها العلماء، كما تطلق على من يحفظ القرآن، وإن كان صغيرا في العمر، كما تطلق كلمة الشيوخ في حقل السياسة، وتأتي مركبة مع كلمة مجلس؛ فيقال: مجلس الشيوخ.

وفي اللسان "الشيخة نَبْتَةٌ لبياضها؛"[42] فهل سميّت هذه النبتة الشيخة؛ لأن بياضها يشبه الشيب؟ أم أنّ هذه النبتة اسمها الشيخة، وانتقلت التسمية منها إلى المسنّ؟

وتأييدا لما ذهب إليه الدكتور إبراهيم أنيس أقول: إنَّ البحث في أصل التسمية ــ هو أيضا ـ ضرب من البحث في ما وراء الطبيعة؛ لأنه لا يمكن الوصول في شأنه إلى رأي علمي مرجّح.

وجدير بالذكر أنَّ التطور اللغوي قد يكون مقصودا؛ "فمعظم المصطلحات الفقهية الإسلامية في العبادات وغيرها كالصلاة والزكاة والصيام والهدي والسعي، ونحوها محوّل عن معان لغوية عامة إلى معان اصطلاحية خاصة عن طريق القصد والعمد."[43]

كما أنّ التطور الدلالي قد يحدث دون قصد، فعندما تنتقل كلمة ذئب وهو اسم جنس، إلى الوصفية؛ في قولنا: فلانٌ ذئب، يحدث تطور دلالي في كلمة ذئب، حيث كانت دالة على جنس من الحيوان، وصارت دالة على وصف يتضمن الشر والخديعة.

يقول الدكتور تمام حسان: "من الملاحظ في تطور الدلالة من عصر إلى عصر أنّ هذا التطور يعتبر صدى لتحول اجتماعي خارج حقل اللغة، يتضاءل فيه الاهتمام بأحد المسميات، ويتعاظم فيه الاهتمام بمسمى آخر؛ فيغلب الآخر على الكلمة التي كانت تدل على الأول، كلفظ الحرية مثلا حين ألغي الرقيق، وألغي معه التقسيم الاجتماعي إلى عبد وحر أصبح لفظ الحرية يستعمل استعمالا مجازيا أولا بمعنى القدرة على الاختيار سياسيا، ثم استمر إطلاق الكلمة على هذا المعنى حتى اقتربت في دلالتها عليه من الحقيقة، وضعف فيها المجاز؛ فلا يلمحه إلا صاحب التفكير اللغوي."[44]

وبعد هذا العرض الملخّص لما جاء في موضوع التطور الدلالي في بعض الكتب الحديثة، وكتب التراث، يمكن القول: إن التطور الدلالي هو تغيّر يطرأ في دلالة اللفظ على معناه، وكل تغيّر له أسباب، وفي السياق القرآني ورد ذكر عصا سيّدنا موسى، عليه السلام، وما آلت إليه، حيث تحولت إلى ثعبان مبين، وحية تسعى، اهتزازها يشبه اهتزاز الجان؛ والكلمات (ثعبان، وحية، وجان) مفردات في اللغة يطرأ عليها ما يطرأ في اللغة من تطور دلالي.

المبحث الثاني: دلالة العصا وما آلت إليه

العصا في المعجم اللغوي:

هي العُودُ، اسم مؤنث؛ قال تعالى ((هِيَ عَصَايَ))[45] تقول: قد عَصَوْتُه بالعصا إذا ضربته بها،[46] وتطلق العصا على "الاجتماع والائتلاف، ويقال للرجل إذا أقام بالمكان واطمأنَّ واجتمع له أمْرُهُ: قد ألقى عصاه؛"[47] لأن الرجل في سفره يحمل عصاه، فإذا أقام بالمكان ألقاها؛ فهو لا يحتاجها في محل إقامته، و"يقال ألقى فلان عصاه إذا نَزَلَ تصوُّرا بحال من عاد من سفره."[48]

وقيل: "سميت العصا عصا؛ لأن اليد والأصابع تجتمع عليها، مأخوذ من قول العرب عَصَوْتُ القومَ أعْصُوهُمْ إذا جمعتهم على خير أو شرّ."[49]

وأيًّا كان أصلُ الاشتقاق فالاسم (عصا) وهي أداة للتمنُّع تعطي صاحبها القوة، فيجمع بها ما يريد جمعه؛ يجمع قوته، يجمع الناس حوله، يجمع ماشيته؛ وكأنّ العصا رمز لجمع كل ما تفرّق.

ومنه "عصى عصيانا إذا خرج عن الطاعة، وأصله أن يتمنَّع بعصاه."[50]

والعصا سلاح يدافع به المرء عن نفسه، ويجمع شتات أمره، "ويقال فيمن فارق الجماعة: فلان شقَّ العصا."[51]

وانشقت العصا: وقع الخلاف؛ وتُضرب العصا مثلا للاجتماع، وانشقاقها مثلا للافتراق الذي لا يكون بعده اجتماع؛ إذ لا تُدعى عصا إذا انشقت.[52]

"ويقال للرجل إذا كان قليل الضرب للماشية: إنه لَلَيِّنُ العصا؛"[53] فالعصا يستعملها الإنسان في سفره، يدافع بها عن نفسه، يرعى بها ماشيته، وهي عدته في السلم والحرب، وجاء ذكر "ناس كثير لا يستعملون في قتالهم إلا العصي."[54]

العصا في السياق القرآني:

إجمال القول في استعمال العصا جاء على لسان سيّدنا موسى، عليه السلام، في قوله تعالى: ((وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى))[55]

يُفْهَمَ من السياق القرآني أن العصا ملك خاص؛ فهي عصا سيّدنا موسى، عليه السلام، أضيفت لياء المتكلم؛ و"اعتمد بها، وتشدَّد بها"[56] ويتحامل عليها في المشي، ويضرب "بها الشجر اليابس ليسقط ورقها فترعاه غنمه،"[57] ويقضي بها حوائج أخرى، وللخيال هنا حرية في إضافة استعمالات بشرية أخرى.

والله ـ جل في علاه ـ عليم خبير، وسؤاله لسيّدنا موسى، عليه السلام، استفهام جاء لغرض التنبيه إلى ما سيحدث لهذه العصا؛ فهي عود يابس، له وظائف كثيرة لبني آدم.

واستعمال العصا ورد ذكره في قصة سيّدنا سليمان، عليه السلام، يقول الجاحظ في استدلاله على أنّ استعمال العصا مأخوذ من أصل شريف: "من المواضع التي لا يعيبها إلا جاهل، ولا يعترض عليها إلا معاند، اتّخاذ سليمان بن داود، صلى الله عليه، العصا لخطبته، وموعظته، ولمقاماته، وطول صلاته، ولطول التلاوة والانتصاب، فجعلها لتلك الخصال جامعة؛"[58] قال تعالى ((فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ المَوْتَ ما دلَّهُمْ على موته إلا دابَّةُ الأرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فلمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ))[59] والمِنْسَأة هي العصا.

وعصا سيّدنا موسى مثل أيَّة عصا مأخوذة من الشجر، وجاءت صفاتها في السياق القرآني؛ حتى لا يتبادر إلى الذهن غير ذلك؛ وبخاصة عندما تتحول إلى معجزة وتنقلب إلى ثعبان مبين.

جاء في تفسير قوله تعالى ((وإذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لقَومِهِ فَقُلنَا اضْرِب بعَصَاكَ الْحَجَرَ))[60] أنَّ "عصا موسى هي التي ألقاها في مجلس فرعون فتلقفت ثعابين السحرة، وهي التي كانت في يد موسى حين كلمه الله في بريّة سينا قبل دخوله مصر، وقد رويت في شأنها أخبار لا يصح منها شيء؛ فقيل: إنها كانت من شجر آس الجنة أهبطها آدم فورثها موسى، ولو كان هذا صحيحا لعده موسى في أوصافها حين قال: هي عصاي."[61] هذه العصا ـ إحدى معجزتي سيّدنا موسى، عليه السلام ـ تكرر ذكرها في السياق القرآني، وجاءت في المواضع الآتية:

1. في قوله تعالى ((وإذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لقَومِهِ فَقُلنَا اضْرِب بعَصَاكَ الْحَجَرَ))[62]

2. في قوله تعالى ((وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقاه قَوْمُهُ أنِ اضْرِب بِّعصَاكَ الْحَجَرَ))[63]

3. في قوله تعالى ((فأوحينا إلى موسى أنِ اضرِب بعصاك البحر فانفلق فكان كلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العَظِيمِ))[64]

وجاء في تفسير الآية أن هذه العصا هي المسؤول عنها في قوله تعالى[65] ((وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى))[66]

وهي العصا التي تحولت إلى ثعبان عندما بعث الله نبيه موسى إلى فرعون ومَلَئِه، وجاء عرضها في ثلاثة مواقف من القصة، الأول في بداية الوحي إلى سيّدنا موسى عليه السلام، والثاني في دعوة فرعون، والثالث في يوم الزينة أثناء مواجهة السحرة.

4. في قوله تعالى ((وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِي بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ))[67]

5. في قوله تعالى ((وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ))[68]

6. في قوله تعالى ((وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآَرِبُ أُخْرَى))[69]

7. في قوله تعالى ((فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ))[70]

8. في قوله تعالى ((فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ))[71]

9. في قوله تعالى ((يا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ))[72]

10. في قوله تعالى ((وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ))[73]

إعجاز العصا في الموقف الأول من القصة:

أول ذكر لعصا سيّدنا موسى عليه السلام في سورة البقرة عندما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل بعد خروجهم من مصر، حيث طلب سيّدنا موسى، عليه السلام، السقيا لقومه وقد عطشوا في التيه ((فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ)) أي اضرب أيّ حجر كان تتفجر بقدرتنا العيون منه ((فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا)) أي فضرب فتدفق الماء منه بقوة وخرجت منه اثنتا عشرة عيناً بقدر قبائلهم.[74]

والمتتبع لقصة سيّدنا موسى في القرآن الكريم يجد أن إعجازَ العصا في تدفق عيون الماء إثر ضرب الحجر بها آخرُ ظهور للعصا في قصة سيّدنا موسى، أما أول ظهور للعصا في القصة ففي قوله تعالى: ((وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآَرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى))[75]

هذه الآية جاء فيها عرض قصة سيّدنا موسى عليه السلام، مع فرعون، حيث بدأ عرض القصة مخاطبا سيّدنا محمدًا، ﷺ، ((وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّيَ آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّيَ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى))[76]

وبتأمل هذه الآيات يمكن ملاحظة أنّ الاستفهام ليس على حقيقته؛ جاء في التفسير أنَّ "الاستفهام مستعملٌ في التشويق إلى الخبر مجازًا وليس مستعملا في حقيقته."[77] أي هل جاءك يا محمد خبر موسى وقصته؟ وذلك عندما رأى نارا، ورؤية النار تدل على أنّ هذا الخبر كان ليلا؛ فخشي على أهله، فقال لهم: أقيموا مكانكم. رُوي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه قال: "لما قضى موسى الأجل سار بأهله، فضَلَّ الطريق، قال عبد الله بن عباس: كان في الشتاء، ورُفِعَتْ لهم نار، فلما رأها ظن أنها نار، وكانت من نور الله."[78]

ولمتلقي القرآن أن يستحضر حالة سيدنا موسى عليه السلام؛ فهو مسافر أخطأ الطريق في ليلة مظلمة شاتية، أمر أهله بالبقاء في مكانهم؛ ليبحث لهم عن سبيل الهداية إلى الطريق

الصحيح؛ بينما هو على هذه الحالة من الحيرة والقلق أبصر نارا من بعيد وظنَّها ناراً وكانت من نور الله. يقول الزمخشري: "استأذن موسى شعيبا عليهما السلام في الخروج إلى أمه، وخرج بأهله، فولد له في الطريق ابن في ليلة شاتية مظلمة مثلجة، وقد ضل الطريق، وتفرقت ماشيته، ولا ماء عنده، وقدح فصلد زنده؛ فرأى النار عند ذلك."[79]

ويُطَمْئِنُ سيّدُنا موسى، عليه السلام، أهْلَهُ بأنه أبصر نارا، وستُفرج عنه بشعلة منها، أو يجد عليها من يهديه إلى الطريق؛ فذهب إلى مصدر النار ومخاوف البشر تتنازعه، فسمع نداء من ربّه؛ فهذه بداية رسالة سيّدنا موسى، وأول خطاب من ربّه، إذ ناداه منادٍ غير معلوم له، فجاء التعبير القرآني ببناء الفعل للمجهول؛ ثم بإعلامه بأنّ المنادي هو ربّك، وأنك ياموسى في حضرته في البقعة المباركة، وأنك المختار للاستماع للوحي وتبليغ الرسالة.

والوحي المأمور بالاستماع إليه قوله تعالى((إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري)) إذ يُبيّن الوحيُ الأصلَ الأول من أصول الدين، وهو معرفة الله وتوحيده، ثم الأمرَ بالعبادة وإقامة الصلاة للتذكير؛ فالصلاة تُذَكِّرُ العبد بخالقه، وبعدها استؤنف الكلام بالحديث عن الأصل الثاني من أصول الدين، وهو الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من جزاء.

جاء في تفسير البيضاوي أنَّ "(إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) بدل من (مايوحى) دالّ على أنه مقصور على تقرير التوحيد الذي هو منتهى العلم والأمر بالعبادة التي هي كمال العمل (وأقم الصلاة لذكري) خصها بالذكر وأفردها بالأمر للعلة التي أناط بها إقامتها وهي تذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره..."[80]

هذا أمر عظيم كُلِّفَ به سيّدنا موسى عليه السلام، والله جلّ في علاه خبير بما في نفوس البشر، وسيّدنا موسى، عليه السلام، يبحث عن هداية تهديه إلى الطريق الذي يبلغ به مأمنَه في الدينا؛ وإذ بالخالق يهديه إلى سبيل النجاة في الدنيا والآخرة.

ولكي يستأنس سيّدنا موسى لما سيأتي سأله ربُّ العالمين ((وما تلك بيمينك يا موسى)) فأجابه بقوله ((هي عصاي)) ثم ذكر صفاتها؛ فأمره بإلقائها، فتحولت العصا من خشبة يابسة لا حياة فيها إلى حيّة تسعى؛ فيها كل مظاهر الحياة.

قال تعالى: ((وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى))

أمر عجيب ومعجز حدث أمامه، عليه السلام، فخاف وولَّى مدبرا ولحقه ما لحق طبع البشر من الخوف والهروب قال تعالى: ((قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى))

وفي قوله تعالى : ((يا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ))[81] أنَّ سيّدنا موسى، عليه السلام، رأى الخشبة اليابسة تتحرك مثل حركة الجانّ.

وفي التفسير أنَّ "في الآية حذفا: أي وألق عصاك فألقاها من يده فصارت حية تهتز كأنها جان، وهي الحية الخفيفة الصغيرة الجسم. وقال الكلبي : لا صغيرة ولا كبيرة. وقيل: إنها قلبت له أولا حية صغيرة فلما أنس منها قلبت حية كبيرة. وقيل : انقلبت مرة حية صغيرة، ومرة حية تسعى وهي الأنثى، ومرة ثعبانا وهو الذكر الكبير من الحيات. وقيل: المعنى انقلبت ثعبانا تهتز كأنها جان، لها عظم الثعبان وخفة الجان واهتزازه، وهي حية تسعى."[82]و"رأها تهتز: تتحرك باضطراب، كأنها جان: حية خفيفة وسريعة."[83]

"والاهتزاز : الاضطراب، وهو افتعال من الهز، وهو الرفع كأنها تطاوع فعل هاز يهزها، والجان: ذكر الحيات، وهو شديد الاهتزاز وجمعه جنان، وأما الجان بمعنى واحد الجن فاسم جمعه جن. والتشبيه في سرعة الاضطراب؛ لأن الحيات خفيفة التحرك."[84]كما فُسِّرت الحيّة بالثعبان؛ جاء في البحر المحيط عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنها في الموقف الأول انقلبت ثعبانا تبتلع الصخر والشجر؛ فلما رأى سيدنا موسى هذا الأمر العجيب الهائل لحقه ما يلحق البشر عند رؤية الأهوال.[85] وجاء في تفسير قوله تعالى ((وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ))[86] (فلما رأها تهتز) أي: "تضطرب، (كأنها جان ولى مدبرا) أي: في حركتها السريعة مع عظم خلقها واتساع فمها، واصطكاك أنيابها، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها، تنحدر في فيها تتقعقع، كأنها حادرة في واد، فعند ذلك (ولى مدبرا ولم يعقب) أي: ولم يلتفت؛ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك، فلما قال الله له: (يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) رجع فوقف في مقامه الأول."[87]

والحية في كتب التفسير "اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير"[88] وقيل: "اسم لصنف من الحنش مسموم إذا عض بنابيه قتل المعضوض ، ويطلق على الذكر، ووصف

الحية بـ((تسعى)) لإظهار أن الحياة فيها كانت كاملة بالمشي الشديد،"[89]بعد أن كانت عصا لا حياة فيها.

ويمكن تفسير الحيّة بأنها وصف للعصا التي كانت جمادا ثم دبت فيها الحياة، فصارت حيّة مؤنث حيّ، وهو وصف مشتق من (ح ي ي) ويُرجِّحُ هذا التفسير ـ عندي ـ وصف حية بجملة ((تسعى)) إذ لو كان تفسير حيَّة اسم جنس لصنف من الحنش لكانت جملة ((تسعى)) زائدة لا تضيف دلالة؛ لأن السعي بيان مظاهر الحياة، والحنش كامل الحياة؛ فضلا عن أنّ زمن القصة كان ليلا، وبيان حياة العصا في الظلام كان دليلا كافيا لسيّدنا موسى، عليه السلام، على قوة المعجزة التي وهبها الله له، وعلى القدرة الإلهية المطلقة.

وجدير بالذكر هنا أنَّ كلمة حيَّة وصفا مشتقا ناسبت السياق، لأنّ الله، جلّ في علاه، أراد تقوية سيّدنا موسى بالمعجزة، ولم يرد تخويفه، فسأله عن العصا، فكانت الإجابة من سيدنا موسى، عليه السلام، أنها أداة يستعملها في شؤون حياته، أي هي أداة جامدة ميّتة؛ أراد الله سبحانه وتعالى أن يريه عكس ذلك؛ فبعث فيها الحياة، وتحركت. وجاء قوله تعالى: ((فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ)) دليل على أنَّ سيّدنا موسى لم يتبيّن حقيقتها بعد! فهي تتحرك وتضطرب وتشبه الجان في حركتها.

وفي اللغة قيل: الجانّ ضرب من الحيات،[90] "أكحل العينين يضرب إلى الصفرة، لا يؤذي، وهو كثير في بيوت الناس"[91] وهو "الحيَّة التي ليست بالعظيمة ولا الصغيرة،"[92] ويُجْمَعُ على جِنَّان،[93] والجانّ: أبو الجن.[94] وذكر ابن فارس(395 هـ) سبب تسمية هذا النوع من الثعابين بالجانّ؛ فقال: "أما الحيَّة الذي يسمَّى الجانّ فهو تشبيهٌ له بالواحد من الجانّ"[95]

وبناء على ما سبق يمكن الجزم أنَّ العصا في الموقف الأول تحركت حركة تدل على الحياة فيها، فعبر السياق القرآني بالوصف حيَّة تتحرك في سورة الأعراف، وصَوَّرَ حركتها بتشبيهها بحركة الجانّ في سورتي النمل والقصص.

وهذا يشير إلى أنّ هيأة الثعبان لم تكن واضحة لسيّدنا موسى، عليه السلام، في الموقف الأول؛ لأنّ المراد من الموقف الأول تهيئته لهذه المعجزة التي سيواجه بها فرعون وقومه، فرأى العصا تتحرك وتهتزّ كأنها كائنٌ حيّ.

إعجاز العصا في الموقف الثاني من القصة:

يتمثل الموقف الثاني في قدوم سيّدنا موسى، عليه السلام، إلى فرعون، ومحاولة إقناعه بوجود الله تعالى، وعندما طلب فرعون الدليل المادي على صدق رسالة سيّدنا موسى، عليه السلام جاءه بالْحُجَّة "على إثبات الإلهية، وعلى حقيّة ما جاء به من إرشاد قومه،"[96] وحجَّتُه ـ عليه السلام ـ عصاه فإذا بها تتحول إلى ثعبان مبين، ويده التي تصير بيضاء للناظرين.

والثعبان ذُكِر مرتين في قصة سيّدنا موسى؛ الأولى في قوله تعالى: ((وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِي بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ))[97]

والأخرى في قوله تعالى: ((قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ))[98]و"مبين: ظاهر أمره، لا يُشك في أنَّه ثعبان،"[99] و"الثعبان: حيَّة عظيمة، ومبين: اسم فاعل من أبان القاصر المرادف لبان؛ أي ظهر، أي الظاهر، الذي لا شك فيه ولا تخيّل."[100] وجاء في تفسير الآية من سورة الأعراف أنه "كان ثعبانا ذكرا أشعر فاغرا فاه، بين لحييه ثمانون ذراعا، وضع لحيه الأسفل في الأرض، ولحيه الأعلى على سور القصر، ثم توجّه نحو فرعون؛ ليأخذه، فوثب فرعون من سريره، وهرب، وأحدث، ولم يكن أحدث قبل ذلك، وهرب الناس وصاحوا، وحمل على الناس، فانهزموا، فمات منهم خمسة وعشرون ألفا، قتل بعضهم بعضا، ودخل فرعون البيت وصاح: يا موسى، خذه وأنا أومن بك، وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه موسى، فعاد عصى."[101]

ويُستأنس بهذه الرواية لتأكيد وضوح هيأة الثعبان، فقد ظهر على فرعون ومن معه من قومه، وصورته واضحة جليّة.

وجاء في معاني الفراء(207 هـ) الثعبان: "هو الذكر، وهو أعظم الحيات"[102] وذكر الزجاج (311 هـ) الثعبان الحيّة، والحية الذكر، مستدلا على هذا التفسير بقوله: " وقال الله في موضع آخر ((فإذا هي حيّة تسعى)) ومعنى مبين؛ أي مبين أنها حيّة."[103]

ونُقِلَ عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قوله: "ألقى العصا فصارت حيَّة، فوضعت فما لها أسفل القبة، وفما لها أعلى القبة"[104] وقوله: "ألقى عصاه، فتحولت حيَّة عظيمة فاغرة فاها،

مسرعة إلى فرعون، فلما رأى فرعون أنها قاصدة إليه، اقتحم عن سريره فاستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل"[105] وقوله: "الحيَّة الذكر." [106]

وفي تفسير القرطبي "الثعبان: الحية الضخم الذكر، وهو أعظم الحيات. مبين أي حيّة لا لبس فيها"[107]

وفي المعجم ذكر كُراع (310 هـ) "الثُّعبان: العظيم من الحيات، والثُّعبان جمع ثَعْب، وهو مسيل الوادي،"[108] وحمل ابن فارس (395 هـ) الثعبان على مادة الثاء والعين والباء؛ فقال: "الثاء والعين والباء أصل يدل على امتداد الشيء وانبساطه، يكون ذلك في ماء وغيره. قال الخليل: يقال: ثَعَبْت الماءَ، وأنا أثْعَبُه إذا فجرته؛ فانثعب كانثعاب الدم من الأنف، قال: ومنه اشتق مَثْعَب المطر. ومما يصلح حَمْلُه على هذا الثُّعبانُ الحيَّة الضخم الطويل، وهو من القياس في انبساطه، وامتداده خَلْقًا وحركة."[109] وأجاز الراغب (502 هـ) "أن يكون سُمِّي بذلك من قولهم: ثَعَبْتُ الماءَ فانْثَعَبَ، أي فجَّرْتُه وأسلْتُه فسال، ومنه ثعب المطر."[110]

وهذا يعني أنَّ ثعبان على وزن فُعْلان[111] تعني في كلام العرب حيوان من الزواحف، جاء ذكره موصوفا بالإبانة والوضوح، وهو اسم مشتق من ث ع ب، وهو أعظم الحيا تكما ورد في كتب اللغة والتفسير.[112]

ولعل ذِكْرَ الثعبان الواضح في هيأته مناسبٌ للسياق الذي جاء فيه؛ فالمعجزة قدّمها سيّدنا موسى على الملأ من قوم فرعون في مناظرة بين الحق والباطل؛ فرضت وجود دليل واضح قوي، وبهذا يختلف الموقف الثاني عن الأول؛ ففي الموقف الأول العصا بُعِثَتْ فيها الحياة فتحركت ساعية، أما الموقف الثاني كان موقف إظهار القوة فناسبه لفظ ثعبان.

إعجاز العصا في الموقف الثالث من القصة:

تتجلى مظاهر الحياة في عصا سيّدنا موسى، عليه السلام، في الموقف الثالث؛ حيث جمع فرعون السحرة، ووعدهم بأجْرٍ عظيم وجَعْلِهم من المقرَّبين، وبدأت المعركة بين الحق والباطل، وألقى السحرة الحبال والعصيّ، وسحروا أعين الناس، وخُيّل للنّاس ولسيّدنا موسى أنَّ هذه الحبال تتحرك وتهتز وتسعى، قيل: لوَّنوا حبالهم وخشبهم، وجعلوا فيها الزئبق، فصارت متحركة، بعد ذلك ألقى سيّدنا موسى عصاه فابتلعت كل الحبال والعصي، وعندها أيقن السحرة أن ما جاء به سيّدنا موسى حق وليس بسحر، فسجدوا لله أمام هذه المعجزة، وجاءت أقوال كثيرة في وصف الثعبان في هذا الموقف.[113]مع أنَّ السياق القرآني الذي ورد فيه هذا

الموقف لم يُذكَرْ فيه كلمة ثعبان، وإنما كان المهم في هذا الموقف ما فعله الثعبان، فهو حقٌّ ظاهر ابتلع الباطل.

كما أنَّ الثعبان ظهر لفرعون وقومه في الموقف الثاني؛ لإقناع الحاضرين بالمعجزة، أما في الموقف الثالث فالمراد أن تتحرك العصا وتبتلع الحبال والخشب في صورة حقيقية؛ لإقناع الحاضرين بانتصار الحقّ على الباطل.

وتنبغي الإشارة إلى أنَّ في الموقف الثالث جاء في السياق ذِكْرُ العصا؛ فهذه العصا التي تحولت إلى كائن حيّ في الموقف الأول؛ وإلى ثعبان مبين في الموقف الثاني، وتبتلع الإفك في الموقف الثالث.

قال تعالى: ((قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ))[114]

وقال: ((فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ))[115]

والملاحظ أنّ الضمير (هي) والإخبار بالتأنيث في الفعل (تَلَقَّفُ) فيه تأكيد معجزة العصا، فالعصا هي المتغيّرة؛ فلم يرد في هذا الموقف ذكر ثعبان أو حية أو جان، فضلا عن أنّه جاء في القرآن ذكر الموقف الثالث ولم تُذكر فيه العصا ولا ما آلت إليه. قال تعالى: ((وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ))[116]

وقال: ((قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ

الأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَّفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى))[117]

ويمكن إيجاز المواقف التي ذُكِرَتْ فيها العصا في ثلاث نقاط:

1- أنَّ سيّدنا موسى، عليه السلام، كان ساريا بأهله؛ فأبصر ناراً، وذهب ليستأنس بها؛ فناداه ربُّه، وأعلمه بحقيقة إلهيته، جلَّ في علاه، وأن يلقي عصاه، و سيّدنا موسى عليه السلام لا يوجد في ذهنه أي تصور لما سيكون، فالعصا جامدة، ميتة، رأها تتحول إلى كائن حي، فعُبِّرَ عنها بقوله تعالى: ((حيّة تسعى)).

2- أنَّسيّدنا موسى، عليه السلام، ذهب إلى فرعون فطلب منه البرهان على صدق رسالته من الله تعالى فألقى سيّدنا موسى عصاه، تحولت مباشرة إلى ثعبان واضح مبين.

3- اجتماع السَّحَرة وإلقاء حبالهم وعصيّهم وسحرهم أعين الناس؛ وهنا تظهر حقيقة معجزة العصا؛ حيث ألقى سيّدنا موسى عصاه، فأكلت ما يصنعون من إفك، فالثعبان حقٌّ انتصر على الباطل.

ولعله من المفيد عرض ما جاء في بعض كتب التفسير من محاولة الربط بين دلالات ما آلت إليه العصا؛ إذ تحولت إلى حية، وإلى ثعبان، وإلى ما يشبه الجان؛ فذكر الزمخشري أنَّه لا يوجد تعارض بين هذه الدلالات عندما قال: "فإن قلتَ: كيف ذُكِرَتْ بألفاظ مختلفة: بالحيّة، والجان، والثعبان؟ قلتُ: أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى، والصغير والكبير.

وأما الثعبان والجان فبينهما تنافٍ؛ لأن الثعبان العظيم من الحيات، والجان الدقيق، وفي ذلك وجهان: أحدهما أنها كانت وقت انقلابها حيَّة تنقلب حيّة صفراء دقيقة، ثم تتورم، ويتزايد جرمها حتى تصير ثعبانا، فأريد بالجان أول حالها، وبالثعبان مآلها. الثاني: أنها كانت في شخص الثعبان، وسرعة حركة الجان، والدليل عليه قوله تعالى ((فلما رأها تهتز كأنها جانّ)) وقيل: كان لها عرف كعرف الفرس."[118] أي الدليل تشبيهها بالجان في سرعة حركته.

وفي تفسير الرازي ذِكْرُ انتفاء التناقض في قوله: "إن قيل: كيف قال ههنا: ((ثعبان مبين)) وفي آية أخرى : ((فإذا هي حية تسعى)) وفي آية ثالثة: ((كأنها جان)) والجان مائل إلى الصغر والثعبان مائل إلى الكبر؟ جوابه: أما الحية فهي اسم الجنس ثم إنها لكبرها صارت ثعبانا، وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها فصح الكلامان، ويحتمل أنه شبهها بالشيطان لقوله

تعالى: ((والجان خلقناه من قبل من نار السموم)) ويحتمل أنها كانت أولا صغيرة كالجان ثم عظمت فصارت ثعبانا."[119]

"وقوله كأنها جان صريح في أنه تعالى شبهها بالجان ولم يقل إنه في نفسه جان، فلا يكون هذا مناقضا لكونه ثعبانا بل شبهها بالجان من حيث الاهتزاز والحركة، لا من حيث المقدار."[120]

وينتفي التناقض عندما تُفسَّر حيّة بأنها صفة مشبّهة من الفعل اللازم حَيِيَ، فالعصا كانت ميّتة فصارت حيّة، ووصفت الحياة فيها بالسعي، ولتصوير هذه الحياة شُبِّهت حركة العصا بحركة الجان.

وبعد.. فمن الملاحظ أن الثعبان فُسِّر بالحيّة العظيمة، فهل كان لفظُ الحيَّة دالا على الثعبان قبل نزول القرآن؟

المبحث الثالث: دلالة كلمة حيّة

يصعب الجزم بانتفاء وجود استعمال كلمة الحيّة دالّةً على الثعبان قبل نزول القرآن، ولكن مادة ثعب في المعجم تضمنت دلالة امتداد الشيء وانبساطه، فأُطْلِقَتِ الثَّعَبُ على مَسيل الوادي[121] وأطلقت كلمة ثعبان على الضخم من الحيات.[122] والثعبان كذلك جمع ثَعْب؛ وهو مسيل الوادي، ولبيان دلالة الثعبان في المعجم فُسِّرَ بالْحَيَّةِ؛ وقيل: كل حيَّة ثعبان، وقيل: الثعبان: الحيَّة الذكر، ويجمع ثعابين.[123] وتسمية ثعبان جاءت من انبساطه وامتداده، مثل مَسيل الوادي، أما كلمة حَيَّة فهي اسم مشتق من ح ي ي، جاء في المعجم حَيِيَ يحيا، فهو حيّ، وفيها لغة: حَيَّ يَحَيُّ بالإدغام،[124] والحيّ دالٌّ على مدلولات عديدة؛ منها نقيض الميت،[125] والحيُّ: الحق، ومنه قول العرب: هو لا يعرف الحيّ من الليّ؛ أي لا يعرف الحق من الباطل، والحيُّ: كل متكلم ناطق، والحيُّ: واحد أحياء؛ حيٌّ من أحياء العرب، والحيُّ: الحياة، والحيُّ: المنع؛ يقال: لا حيَّ عنه؛ أي لا منع،[126] فضلا عن أنّ الحيّ اسم من أسماء الله الحسنى "يفيد دوامَ الوجود"[127] وهو علم بالغلبة على الذات الإلهية.[128]

ويصاغ اسم الفاعل حايٍ إن كان في معنى يحيا، مثل مارِض في معنى يمرض، وقيل "ضُرِبَ ضربةً ليس بحايٍ منها؛ أي ليس يحيا منها."[129] و"الحايي : واجد الحياة، وهو يدل على معنى الحدوث بخلاف الحيّ؛ ومنه قولهم: ضربتُه ضربةً ليس بحايٍ بعدها."[130] وهذا

يعني أن حاييا اسم فاعل فيه معنى الحدوث والتجدّد، وأما حيٌّ فهو صفة مشبهة فيه معنى الثبوت.

جاء في معجم العين "الحيوان: كل ذي روح، الواحدُ والجميع فيه سواء، والحيوان ماء في الجنة لا يصيب شيئا إلا حيّ بإذن الله، والحيّة اشتقاقها من الحياة، ويقال: هي في أصل البناء حَيْوَة. ولكنّ الياء والواو إذا التقتا وسُكنت الأولى منهما جعلتا ياء شديدة، ومن قال لصاحب الحيّات: حايٍ فهو فاعل من هذا الباب؛ صارت الواو كسرة كواو الغازي، ومن قال: حوّاء على فعَّال فإنه يقول: اشتقاق الحيَّة من حَوَيْتُ؛ لأنها تتحوَّى في التوائها."[131]

والحياة نقيض الموت، كتبت بالواو في رسم المصحف، وقيل السبب أنها كتبت على لغة من يفخم الألف التي مرجعها إلى الواو؛ ليعلم أنّ الواو بعد الياء.[132] وقيل: الواو في الحيوة في رسم المصحف هي بدل من ألف حياة، وليست بلام الفعل من حَيَوَة.[133]

والحيٌّ كلّ شيء نقيض الميت، والحيّة: الحَنَش المعروف، اشتقاقه من الحياة؛ بدليل النسب إلى حيَّة حَيَوِيّ؛[134] سأل سيبويه الخليل "عن الإضافة إلى حيَّة، فقال: حَيَويّ، كراهية أن تجتمع الياءات، والدليل على ذلك قول العرب في حيَّة بن بَهْدَلة: حَيَوِيّ."[135]أي اشتقاق الحيّة من حياة؛ إذ أصله ح ي ي؛ وهذا يعني استبعاد أن تكون الحيّة من مادة ح و ي، أو من ح ي و.

والحيّة مؤنث الحيّ، يقال: نبتة حيّة، ونبات حيٌّ، وعصا سيّدنا موسى كانت قبل نداء ربّه ميّتة، فلما ناداه ربُّه، وأمره بإلقائها صارت حَيَّة. وقارئ القرآن عندما يقرأ قوله تعالى ((فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى)) يدرك أنّ الحية هي ثعبان ضخم؛ فالقرآن يُفسِّر بعضه؛ إذ العصا تحولت إلى ثعبان في موضع آخر، ويتيقَّن من أنّ كلمة حيَّة دالّة على الثعبان؛ ولما كان الثعبان الذي ابتلع حبال سحرة فرعون وعصيهم كبيرا؛ صارت كلمة حيَّة تطلق على العظيم من الحيات، وعلى الذكر من الحيات. وكأنّ كلمة حيَّة حدث فيها تطور دلالي، واكتسبت دلالة جديدة، هذا التطور لم يكن متعمَّدا؛ لأن كلمة الحيّة في القرآن جاءت وصفا للثعبان، ثم صارت اسم جنس دالا على الزواحف من الحيوانات.

والعرب تذكّر الحيّة وتؤنثها، فإذا قالت: الحيُّوت عَنَوا الحية الذكر،[136] وفُسِّرت الحيَّة بالأفعى، تذكر وتؤنث: هو الحيَّة، وهي الحيَّة، وقد يفرّق بينهما بالوصف؛ يقال: فلان حيّة ذكر.[137] وجاءت أسماء الحيَّة، وصفاتها في كتب التراث؛ فمنها الحُبَاب والشيطان والحَنَش،

والعَرْماء: التي فيها نقط سود وبيض، والأفعوان: الذكر من الأفاعي، والشجاع: الأسود العظيم، والأرقم: الذي فيه سواد وبياض، وذو الطُفْيَتَيْن: الذي له خطان أسودان، والأبتر: القصير الذنب، والخشاش: الصغير الرأس، والحيّة العاضة والعاضهة : التي تقتل إذا نهشت من ساعتها، ومثلها الصلّ، والنضناض : التي لاتقرّ في مكان، والثعبان: العظيم، والأديم، والايِن.[138] والأراقم: الحيات، واحدها أرقم،[139] والحاربة: الأفعى إذا صغُرت من الكِبَر، والصلّ: الذي لا تنفع معه رُقْيَة، والثعبان: أعظمها، والحُفَّاث: حية عظيمة تنفخ ولا تؤذي،[140] والحِضْب: الضخم من الحيّات، والأُعَيْرِج: حيّة صمّاء لا تقبل الرُّقى، وهي أخبث الحيّات، والأفعوان: الذكر من الأفاعي، وابن قَتْرة: حيّة شبه القضيب من الفضة، وهي من أخبث الحيَّات، وابن طَبَق: حيّة صفراء، وهو أسود سالخ، وفي أمثال العرب: أصابته إحدى بنات طَبَق. وكذلك السِفّ: وهي الحيّة التي تطير في الهواء، والقَزَّة، والهلال، والمزْعَامَة.[141]

واستعملها العربيُّ في أمثاله؛ فقال: هو أبْصَرُ من حيَّة، لحدّة البصر، وهو أظلم من حيّة: لأنها تأتي جُحْر الضبّ؛ فتأكل حِسْلَه [ولده حين يخرج من بَيْضته] وتسكن جُحْرَه. وقالوا: فلان رأسه رأس حيّة إذا كان متوقدا ذكيا شهما، وفلان حيَّة ذكر يريدون شجاعا، وإذا وصفوا رجلا بالشدة قالوا : فلان حيَّة الوادي؛ إذا كان شديد الشكيمة حامي الحقيقة، وقالوا: هم حيّة الأرض؛ إذا كانوا أشداء ذوي بسالة، وفي الدعاء بالهلاك قالوا: سقاه الله دم الحيّات.[142]

وكأنّ الحيّة اجتمعت فيها صفات القوة والشدة والعقل والدهاء والخبث، فإذا أرادوا الوصف بإحدى هذه الصفات قالوا حيّة، وفي عصرنا هذا يقولون: حيَّة من تحت التِّبْن؛ أي إذا كان داهية مُباغِتا بالشر.

وهنا يمكن ملاحظة التطور الدلالي لكلمة حيّة في الجمل الآتية:

1. لم أسقِ النبات، فمات إلا نَبْتَةً واحدة وجدتُها حيَّة.
2. سمُّ الحيّة قاتل.
3. فلان حيّة.

في الجملة الأولى حيّة اسم مشتق من حَيِي، مؤنث حيّ، صفة مشبهة. وفي الجملة الثانية اسم جنس لحيوان من فصيلة الزواحف. وفي الجملة الثالثة صفة تتضمن دلالة يفسرها المقام

الذي قيلت فيه؛ فإن كان مدحا فهي تدل على العقل والقوة، وإن كان ذما فهي تدل على الخبث والدهاء.

ومما يلاحظ أنّ كلمة حيّة في العربية مرت بثلاث مراحل من الدلالة، اسْتُعْمِلَت في المرحلة الأولى وصفًا مشتقًّا، حدث فيه تطور دلالي لم يكن مقصودا؛ فالعرب بعد مجيء الإسلام عكفوا على كتاب الله، وتأثروا بما جاء فيه لاسيما ما جاء في القصص القرآني؛ ففسّروا كلمة حيّة بالثعبان الضخم، مع أنّ العرب لهم أسماء كثيرة لهذا الجنس من الحيوان، وذلك لأنهم اتبعوا ما جاء في قصة سيّدنا موسى، فالعصا تحولت إلى ثعبان مبين، لذلك رأوا ترادفا بين حيّة وثعبان. وصارت كلمة حيّة في المرحلة الثانية دالّة على الحيوان الزاحف القوي القاتل، ثم انتقلت الدلالة إلى الاستعمال المجازي في المرحلة الثالثة.

وهذا لا ينفي أن تكون كلمة حيّة دالّة على الثعبان في اللغات السامية، وحدث فيها تطور دلالي، وصارت وصفا لنقيض الميت وقت نزول القرآن؛ لأنَّ إطلاق الحكم على أنّ أصل كلمة حيّة يدل على انبعاث الحياة ليس فيه إنصاف، فاللغة كائن حيّ تتطور بمرور الزمن، في كل يوم تكتسب ألفاظا جديدة، وتترك استعمال ألفاظ قديمة، وتستعمل ألفاظا قديمة بمدلولات جديدة، والعكس؛ وبذلك يمكن الجزم بأنه يستحيل الوصول إلى نقطة البداية في الدلالة.

وإذا افترضنا أنّ نقطة البداية في دلالة كلمة حيّة جاءت في القرآن الكريم فإنّ أصل الاستعمال في كلمة حيّة أنّها دالّة على نقيض الموت ثم تطورت دلالتها.

خـــاتمة

وبعد، فهذه كانت محاولة لتتبع دلالة كلمةٍ اختلفت مدلولاتها في اللسان العربي، ويمكن حصر أهم نتائج هذه المحاولة في النقاط الآتية:

1 ـ ذُكِرَ تحول العصا إلى كائن حيّ في قصة سيّدنا موسى في ثلاثة مواقف، وفي كل موقف يتناسب حال العصا بعد إلقائها مع المقام الذي جاءت فيه.

2 ـ التدرج في قصة سيّدنا موسى يتناسب مع بيان المعجزة، فهي العصا تتحول إلى كائن حيّ لإقناع سيّدنا موسى بمعجزته، ثم يذكر القرآن الكريم أن هذا الكائن ثعبان مبين؛ وذلك لإظهار قوة المعجزة، ثم هذا الثعبان يأكل ما سُحِرَت أعين الناس به؛ لإظهار انتصار الحق على الباطل.

3 – كلمة حيّة وقت نزول القرآن كانت دالّة على وصف مشتق لحقت به تاء التأنيث، فهو صفة مشبهة على وزن فَعْل، ومؤنثه فَعْلة.

4 – كلمة حيَّة بعد نزول القرآن صارت اسم جنس دالّا على ضرب من الحنش، مع احتفاظها باستعمالها القديم.

5 – كلمة حيَّة دالّة على اسم جنس استعملت استعمالا مجازيا؛ لتعبّر عن صفات يتصف بها البشر.

6 – استحالة الوصول إلى أصل الدلالة؛ فقد تكون كلمة حيّة دالّة على الثعبان العظيم في لغات أخرى تأثرت بها العربية، وبهذا تظل محاولات البحث قاصرة عن الوصول إلى الأصل في دلالة أي لفظ في اللغة.

7ـ إنَّ افتراضَ نقطةِ البدايةِ في دلالة كلمة حيّة أنها جاءت في القرآن الكريم يجعلُ أصلًا لاستعمال في كلمة حيّة أنها دالّة على نقيض الموت ثم حدث فيها تطور دلالي؛ فدلت على ضرب من الحنش، مع احتفاظها باستعمالها القديم، ثم حدث فيها تطور دلالي آخر؛ فدلت على صفات القوة والشدة والعقل والدهاء والخبث، مع احتفاظها بدلالتها على ضرب من الحنش.

8 ـ كلمة حيّة اليوم تدل على نقيض الموت، وتدل على ضرب من الحنش، وتدل على صفات القوة والشدة والعقل والدهاء والخبث.

الهوامش:

[1]- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، مراجعة وتقديم: وائل أحمد عبد الرحمن، المكتبة التوفيقية، مصر، ص342.

[2]- الراغب الأصفهاني: المفردات، ص 112.

[3]- د. إبراهيم السمرائي: التطور اللغوي التاريخي، دار الأندلس، بيروت، ط: 2، 1981م ص 17.

[4]- ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، ترجمة: د. كمال بشر، دار غريب، القاهرة، ط: 12، ص 135.

[5]- ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، ص 177.

[6]المعجم الوسيط، مادة جرثم.

[7]- د. أحمد مختار عمر: علم الدلالة، عالم الكتب، ط: 4 ، 1993م ، ص 246.

[8]- ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، ص 180 - 187.

[9]- المعجم الوسيط، مادة ولد.

[10]- ينظر: عودة خليل أبو عودة: التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، مكتبة المنار، الأردن، ط: 1، 1985م ، ص 54.

[11]- ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، ص 181.

[12]- د. سالم الخماش: أسبابالتغيرالدلالي، قسماللغةالعربية، كليةالآدابوالعلومالإنسانية، جامعةالملكعبدالعزيزبجدة، الموقع الألكتروني: لسان العرب / www.angelfire.com/tx4/lisan/khamash.htm

[13]- ينظر: ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، ص 182.

[14]- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص287.

[15]- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص287 – 288.

[16]- د.أحمدمختار عمر: علم الدلالة، ص 238.

[17]- د. نور الهدى لوشن: علم الدلالة، دراسة وتطبيقا، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط: 1، 1995، ص56.

[18]- المعجم الوسيط، مادة قطر.

[19]- المعجم الوسيط، مادة برد.

[20]- المعجم الوسيط، مادة سير.

[21]- د. أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ص 238 - 239.

[22]- د. أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ص 240.

[23]- د. أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ص 240.

[24]- د. أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ص 241.

[25]- د. أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ص 242.

[26]ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، تعليق وتوضيح حواشيه: أحمد حسن بسج، منشورات محمد علي بيضون، ط: 1، دار الكتب العلمية، 1997م، ص44.

[27]- ابن فارس: الصاحبي، ص 44.

[28]- ابن فارس: الصاحبي، ص 44.

[29]- السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى بك، وآخرون، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ،1987م، (1: 301).

[30]- ابن منظور: لسان العرب، مادة ن ف ق.

[31]- ابن فارس: الصاحبي، ص 46.

[32]- د. إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، ط: 5، مكتبة الأنجلو المصرية، 1984م، ص 128.

[33]- د. إبراهيم انيس: دلالة الألفاظ، ص 128.

[34]- د. إبراهيم انيس: دلالة الألفاظ، ص 130.

[35]- د. علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة، ط: 1، نهضة مصر، القاهرة، 1997م، ص 94.

[36]- ابن منظور: لسان العرب، مادة ش ي خ.

[37]- هود، آية 71.

[38]- يوسف، آية 78.

[39]- القصص، آية 23.

[40]- غافر، آية 67.

[41]- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص 274.

[42]- ابن منظور: لسان العرب، مادة ش ي خ.

[43]- د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ط: 3، عالم الكتب، 1998م، ص 322.

[44]- د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص 322.

[45]- طه، آية 17.

[46]- ينظر: ابن السكيت، أبويوسف يعقوب بن إسحاق: إصلاح المنطق، تحقيق: أحمد محمد شاكر - عبد السلام محمد هارون، القاهرة 1949م ص 370. ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، ط:2 ، 1997م، بيروت، مادة عصو.

[47]- الفارابي، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم: ديوان الأدب، تحقيق: د. احمد مختار عمر - د. إبراهيم أنيس، الشركة المصرية العالمية - لونجمان، 2003م ص 771.
[48]- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص 339.
[49]- ابن منظور: لسان العرب، مادة عصو.
[50]- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص 339.
[51]- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص 339.
[52]- ابن منظور: لسان العرب، مادة عصو.
[53]- الفارابي: ديوان الأدب، ص 771.
[54]- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر: البيان والتبيين، دار الفكر للجميع، 1968م ، (3: 66).
[55]- طه، آية 16- 17.
[56]- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص 546.
[57]- الفراء، أبوزكرياء يحيى بن زياد: معاني القرآن، تحقيق: الأستاذ محمد علي النجار، الهيأة المصرية للكتاب، 2000م، (2: 177).
[58]- البيان والتبيين، (3: 51).
[59]- سبأ، آية 14.
[60]- البقرة، آية 59.
[61]- ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، (1: 518).
[62]- البقرة، آية 59.
[63]- الأعراف، آية 160.
[64]- الشعراء، آية 63.
[65]- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف: تحقيق : البحر المحيط، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، ط: 1، بيروت، 1993م، (1: 389).
[66]- طه، آية 16.
[67]- الأعراف، آية 103 - 106.
[68]- الأعراف، آية 116.
[69]- طه، آية 17.
[70]- الشعراء، آية 31.
[71]- الشعراء، آية 44.
[72]- النمل، آية 10.
[73]- القصص، آية 31.
[74]- ينظر: الصابوني، محمد علي: مختصر تفسير ابن كثير، دار الصابوني، القاهرة، (1: 69).
[75]- طه، آية 16 - 20.
[76]- طه، آية 8 - 15.
[77]- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، (17: 193).
[78]- عبد الله بن عباس: تفسير عبد الله بن عباس، موسوعة مدرسة الكوفة في التفسير، جمع وتحقيق: د. أحمد العمراني، دار السلام، القاهرة، ومؤسسة البحوث والدراسات العلمية(مبدع) فاس، ط:1، 2011م، (2: 1045).
[79]- الزمخشري، محمود بن عمر: الكشاف، ترتيب وضبط وتصحيح: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي (3: 53).
[80]- البيضاوي، تفسير القاضي ناصر الدين البيضاوي، مطبوعات أسعد محمد سعيد الحبال، جدة. ص 414.
[81]- النمل، آية 10.
[82]- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث، بيروت، (13: 160).
[83]- البيضاوي: تفسير البيضاوي، ص 500.
[84]ابن عاشور : تفسير التحرير والتنوير، (19: 228).
[85]- أبو حيان: البحر المحيط، (6: 221).
[86]- القصص، آية 31.
[87]- الصابوني: مختصر تفسير ابن كثير، (3: 12).
[88]- الزمخشري: الكشاف، (3: 58).
[89]- ابن عاشور : تفسير التحرير والتنوير، (16: 207).
[90]- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص 106.
[91]- ابن منظور: لسان العرب، مادة ج ن ن.
[92]- الفراء: معاني القرآن، (2: 287).
[93]- ابن منظور: لسان العرب، مادة ج ن ن.
[94]- الفارابي: ديوان الأدب، ص 543.
[95]- ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (1: 422).
[96]- ابن عاشور : تفسير التحرير والتنوير، (9: 40).

[97]- الأعراف، آية 103 - 106.
[98]- الشعراء، الآيات 22- 31.
[99]- الزمخشري: الكشاف، (2: 138).
[100]- ابن عاشور : تفسير التحرير والتنوير، (9: 40).
[101]- الزمخشري: الكشاف، (2: 138).
[102]- الفراء: معاني القرآن، (1: 387).
[103]- الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري: معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة، 2004م، (2: 294).
[104]- عبد الله بن عباس: تفسير عبد الله بن عباس، (2: 667).
[105]- عبد الله بن عباس: تفسير عبد الله بن عباس، (2: 667).
[106]- عبد الله بن عباس: تفسير عبد الله بن عباس، (2: 667).
[107]- القرطبي: الجامع، (7: 256).
[108]- كراع، أبو الحسن علي بن الحسن الهُنائي: المنجَّد في اللغة، تحقيق: د. أحمد مختار عمر، د. ضاحي عبد الباقي، عالم الكتب، القاهرة، ط: 2، 1988م، ص 80.
[109]- مقاييس اللغة، (1: 378)
[110]- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص 85.
[111]- الفارابي: ديوان الأدب، ص 258.
[112]- ينظرعلى سبيل المثال: الفارابي: ديوان الأدب، ص 258. الزمخشري: الكشاف، (3: 58). ابن منظور: لسان العرب، مادة ثعب.
[113]- ينظر: الزمخشري: الكشاف، (2: 139 - 141). أبو حيان: البحر المحيط، (4: 364).
[114]- الأعراف، آية 114 - 121.
[115]- الشعراء، آية 37 - 47.
[116]- يونس، آية 79 - 82.
[117]- طه، آية 64 - 69.
[118]- الزمخشري: الكشاف، (3: 58).
[119]- الرازي، محمد فخر الدين بن ضياء الدين عمر: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ط: 1، دار الفكر، 1981م، (24: 131- 132).
[120]- الرازي: التفسير الكبير، (24: 246).
[121]- الفارابي: ديوان الأدب، ص 110.
[122]- الفارابي: ديوان الأدب، ص 258.
[123]- ينظر: كراع : المنجد، ص 80. ابن منظور: لسان العرب، مادة ث ع ب.
[124]- الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، تحقيق: د. عبد الله درويش، ومراجعة: أ. محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، الجزء الخامس، مادة ح ي ي.
[125]- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي: المُحْكَمُ والمحيط الأعظم، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، ط: 1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان، 2000م، الجزء الثالث، مادة ح ي ي.
[126]- الأزهري: التهذيب، مادة ح ي ي.
[127]- الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري: تفسير أسماء الله الحسنى، تحقيق ونشر: أحمد يوسف الدقاق، مطبعة محمد هاشم الكتبي، 1975م ص 56.
[128]- ينظر: د. نجاة سعد محمد: الأعلام القرآنية، دراسة صرفية نحوية، أطروحة دكتوراة، مخطوط في مكتبة كلية دار العلوم جامعة القاهرة، ص 225.
[129]- ابن منظور: لسان العرب، مادة ح ي ي.
[130]- سعيد الخوري الشرتوني اللبناني: أقرب الموارد في فُصَحِ العربيةِ والشوارد، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم - إيران، 1403 هـ مادة ح ي ي.
[131]- الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين مرتبا على حروف العجم، ترتيب وتحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، ط: 1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، 2003م، الجزء الأول مادة ح ي ي.
[132]- الأزهري: التهذيب، مادة ح ي ي.
[133]- ابن سيده: المحكم، مادة ح ي ي.
[134]- ابن منظور: لسان العرب، مادة ح ي ي .
[135]- سيبويه، أبوبشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الهيأة المصرية للكتاب، 1973م (3: 345).
[136]- الأزهري: التهذيب، مادة ح ي ي.
[137]- سعيد الخوري: أقرب الموارد، مادة ح ي ي.
138- أبو عبيد، القاسم بن سلَّام الهروي: الغريب المصنَّف، ط: 1،مكتبة نزار مصطفى الباز، 1997م، ص 150 - 151.
[139]- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: أدب الكاتب، تحقيق: محمد طعمة حلبي، ط: 1، دار المعرفة، بيروت، 1997م، ص 62.
[140]- ابن قتيبة: أدب الكاتب، ص 143 - 144.
[141]- الثعالبي، أبو منصور: فقه اللغة وسر العربية، قرأه وقدم له وعلق عليه: خالد فهمي، تصدير: د. رمضان عبد التواب، ط: 1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998م ، (1: 273- 275).
[142]- الأزهري: التهذيب، مادة ح ي ي. ابن منظور: لسان العرب، مادة ح ي ي.

المصادر والمراجع

1. د. إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، ط: 5، مكتبة الأنجلو المصرية، 1984م.
2. د. إبراهيم السمرائي: التطور اللغوي التاريخي، دار الأندلس، بيروت، ط: 2، 1981م.
3. إبراهيم مصطفى، حامد عبد القادر، وأحمد حسن الزيات، ومحمد علي النجار: المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية.
4. د. أحمد مختار عمر: علم الدلالة، عالم الكتب، ط: 4 ، 1993م.
5. الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، تحقيق: د. عبد الله درويش، ومراجعة: أ. محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
6. البيضاوي، تفسير القاضي ناصر الدين، مطبوعات أسعد محمد سعيد الحبال، جدة.
7. د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ط: 3، عالم الكتب، 1998م.
8. الثعالبي، أبو منصور: فقه اللغة وسر العربية، قرأه وقدم له وعلق عليه: خالد فهمي، تصدير: د. رمضان عبد التواب، ط: 1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998م.
9. الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر: البيان والتبيين، دار الفكر للجميع، 1968م.
10. أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف: تحقيق : البحر المحيط، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، ط: 1، بيروت، 1993م.
11. الرازي، محمد فخر الدين بن ضياء الدين عمر: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ط: 1، دار الفكر، 1981م.
12. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، مراجعة وتقديم: وائل أحمد عبد الرحمن، المكتبة التوفيقية، مصر.
13. الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري:
- تفسير أسماء الله الحسنى، تحقيق ونشر: أحمد يوسف الدقاق، مطبعة محمد هاشم الكتبي، 1975م
- معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة، 2004م.
14. الزمخشري، محمود بن عمر: الكشاف، ترتيب وضبط وتصحيح: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي.
15. د. سالم الخماش: أسباب التغير الدلالي، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبدالعزيز بجدة. من الموقع الألكتروني: لسان العرب / www.angelfire.com/tx4/lisan/khamash.htm

16. ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، ترجمة: د. كمال بشر، دار غريب، القاهرة، ط: 12.
17. سعيد الخوري الشرتوني اللبناني: أقرب الموارد في فُصَحِ العربية والشوارد، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم - إيران، 1403 هـ.
18. ابن السكيت، أبويوسف يعقوب بن إسحاق: إصلاح المنطق، تحقيق: أحمد محمد شاكر - عبد السلام محمد هارون، القاهرة 1949م.

19. سيبويه، أبوبشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الهيأة المصرية للكتاب، 1973م.
20. ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي: المُحْكَمُ والمحيط الأعظم، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، ط: 1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان، 2000م.
21. السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى بك، وآخرون، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت ،1987م.
22. الصابوني، محمد علي: مختصر تفسير ابن كثير، دار الصابوني، القاهرة.
23. ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس.
24. عبد الله بن عباس: تفسير عبد الله بن عباس، موسوعة مدرسة الكوفة في التفسير، جمع وتحقيق: د. أحمد العمراني، دار السلام، القاهرة، ومؤسسة البحوث والدراسات العلمية(مبدع) فاس، ط:1، 2011.
25. أبو عبيد، القاسم بن سلَّام الهروي: الغريب المصنَّف، ط: 1، مكتبة نزار مصطفى الباز، 1997م.
26. د. علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة، ط: 1، نهضة مصر، القاهرة، 1997م.
27. عودة خليل أبو عودة: التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، مكتبة المنار، الأردن، ط: 1، 1985م.

28. الفارابي، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم: ديوان الأدب، تحقيق: د. احمد مختار عمر ـ د. إبراهيم أنيس، الشركة المصرية العالمية ـ لونجمان، 2003م.
29. ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا:
ـ الصاحبي في فقه اللغة، تعليق وتوضيح حواشيه: أحمد حسن بسج، منشورات محمد علي بيضون، ط: 1، دار الكتب العلمية، 1997م.
ـ معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.
30. الفراء، أبوزكرياء يحيى بن زياد: معاني القرآن، تحقيق: الأستاذ محمد علي النجار، الهيأة المصرية للكتاب، 2000م.
31. الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين مرتبا على حروف العجم، ترتيب وتحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، ط: 1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، 2003م.
32. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: أدب الكاتب، تحقيق: محمد طعمة حلبي، ط: 1، دار المعرفة، بيروت، 1997م.
33. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث، بيروت.
34. كراع، أبو الحسن علي بن الحسن الهُنائي: المنجَّد في اللغة، تحقيق: د. أحمد مختار عمر، د. ضاحي عبد الباقي، عالم الكتب، القاهرة، ط: 2، 1988م.
35. ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، دار إحياء الترلث العربي، بيروت، ط:2 ، 1997م.
36. د. نجاة سعد محمد: الأعلام القرآنية، دراسة صرفية نحوية، أطروحة دكتوراة، مخطوط في مكتبة كلية دار العلوم جامعة القاهرة.
37. د. نور الهدى لوشن: علم الدلالة، دراسة وتطبيقا، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط: 1، 1995.